

الاسلوب الانثروبولوجي لدراسة المجتمع

د. شكرى نجّار

يرتبط مفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية في كثير من الأذهان بدراسة الشعوب البدائية، وارتكازاً على هذا الفهم نشأت التفرقة في بعض الجامعات بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع، على أساس أن علم الاجتماع يتناول دراسة ظاهرات ومقومات الحياة الاجتماعية الأكثر تطوراً أو تقدماً، أي: مشكلات المجتمع المتمدن، والمجتمع الأوروبي على الخصوص. ويرجع هذا الفهم إلى حد كبير إلى أساس نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية. فقد كان هذا العلم يقصر اهتمامه، بل ولا يزال يهتم اهتماماً خاصاً، بالمجتمعات البدائية والمتخلفة، وكان الأنثروبولوجيون الأوائل يعتمدون في الأغلب في دراساتهم على كتابات وتقارير الرحالة والمبشرين عن تلك الشعوب، وذلك قبل أن يبدأ الجيل التالي من العلماء بدراسة القبائل والمجتمعات البدائية دراسة على الطبيعة تعتمد على الملاحظة المباشرة. وقد يكون السبب في تركيز الاهتمام على المجتمعات البدائية هو - كما يقول إيفانز بريشارد - أن تلك المجتمعات آخذة في الزوال بالتدريج نتيجة لازدياد اتصالاتهم بالعالم الخارجي، وما يترتب على ذلك في العادة من غزو ثقافة الرجل الأبيض المتحضر أو الثقافة الغربية واكتساحها الثقافات الأصلية المتوطنة، وبالتالي هدم أسس التماسك الاجتماعي في تلك المجتمعات. فالمجتمعات البدائية تمر الآن بمرحلة تطور هائل تتغير بموجبه العادات والتقاليد والقيم والنظم الأصلية تغيراً جوهرياً، وعلماء الأنثروبولوجيا يشعرون لذلك بأن الواجب يقتضيهم العمل على تسجيل ملامح هذه الحياة وحفظها للأجيال التالية في شكل دراسات علمية وافية قبل أن تزول تماماً. ولكن قد يكون سبب الانصراف إلى دراسة هذه الشعوب السهولة النسبية التي يستطيع بها الباحث ملاحظة العادات الغريبة غير المألوفة، ولكن إلى جانب هذا هناك اعتبارات أخرى منهجية تتعلق بنفس غاية الأنثروبولوجيا الاجتماعية، تحتم قصر الجهود على دراسة المجتمعات البدائية وخاصة في المراحل الأولى من حياة هذا العلم الناشئ، وأعني بهذه الاعتبارات النظرة التكاملية الكلية الشاملة التي ينظر بها الأنثروبولوجي إلى

المجتمع، والتي يحاول تحقيقها في دراسته. فأى ثقافة من الثقافات تؤلف نسقاً متكاملًا، ومهمة الأنثروبولوجي هي دراسة النظم الاجتماعية المختلفة، على أنها أجزاء في هذا النسق. وليس من شك في أنه من الأسهل رؤية المجتمع البدائي كوحدة كلية كما أن من الأسهل ملاحظة تداخل النظم الاجتماعية وتفاعلها مع الأخرى في المجتمعات البدائية البسيطة عن ملاحظة ذلك في المجتمعات المتحضرة المعقدة. فالمجتمع البدائي يمتاز بأنه أكثر بساطة في بنائه الاجتماعي وأكثر تجانساً، فهو أصغر في المساحة وأقل في عدد السكان وفي تشعب العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تقوم بين أفرادها، كما أنه يمتاز ببساطة النظام الاقتصادي وقلة التخصص المهني أو حتى انعدامه، وسذاجة الآلات والأدوات التي يعتمد عليها⁽¹⁾.

لكن هذا لم يمنع على أي حال من أن تكون هناك دراسات أنثروبولوجية عن مجتمعات أكثر تقدماً وتعقداً كالمجتمعات الإقليمية في تركيا وفرنسا واليونان وقبرص الخ... إنما ما يهتنا الآن هو أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية أضحت تدرس النظم الاجتماعية السائدة في أي مجتمع كوحدة متكاملة متماصة.

وفي الواقع إن كتابات «لين» و«ديبوا» وأمثالها تعطينا صورة كاملة شاملة عن المجتمعات التي تعرض لها. فكتاب «المصريون المحدثون» لا يكاد يغفل ناحية من نواحي النشاط الاجتماعي في مصر في العصر الذي كتب فيه، فهو يعرض لنا في فصوله الثانية والعشرين (عدا المقدمة والتذييلات) مسائل كثيرة متنوعة مثل خصائص المصريين وطباعهم وطبيعة بلادهم، وأحوالهم المنزلية والاجتماعية والاقتصادية، ويتتبع الأطوار المختلفة التي يمر بها الفرد منذ يولد حتى يموت، كما يعطينا وصفاً تفصيلياً للمعتقدات والشعائر الدينية والسحر والشعوذة والاحتفالات والمهرجانات المختلفة، وغير ذلك.

إن كتاب «ديبوا» القيم يصف لنا في صفحاته التي تزيد على السبعائة صفحة كثيراً جداً من ملامح الحياة الاجتماعية في الهند. ففي القسم الأول يتكلم عن نظام الطوائف الهندية على العموم بكل أقسامها وتفرعاتها المعقدة، وبين العلاقات بين أقسام الطائفة الواحدة من جهة وتلك التي تنظم الأوضاع بين مختلف الطوائف من جهة أخرى، كما يعرض قواعد السلوك التي تنظم العلاقات بين الأفراد بحسب فوارق السن والجنس والمركز الاجتماعي، ويفصل القول في القيم الخلقية والجمالية والاقتصادية السائدة في كل طائفة. ويتكلم عن تنظيم الحياة المنزلية وعن العلاقة بين الرجل والمرأة وعن نظام الزواج والقرابة وعن القيود والتحريمات المفروضة على أنواع معينة من الطعام والشراب وغير ذلك. ويخصص «ديبوا» القسم الثاني من كتابه لدراسة طائفة البراهمة بالتفصيل، بينما يتناول القسم الثالث مسائل الدين عامة والمعتقدات والمعابد والآلهة وأنواع العبادات وخاصة عبادة الحيوان، ثم يبين العناصر الدينية في النظم الادارية والقضائية. وواضح أن هذه هي نفس الموضوعات التي يتطرق إليها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية في أبحاثهم وكتاباتهم؛ ولكن كتابات الرحالة والمبشرين، وكذلك كتابات الأنثروبولوجيين الأوائل كانت تتميز بأنها مجرد سرد وصفي للعادات والتقاليد، أي المظاهر الخارجية للثقافة السائدة في المجتمع المدروس، دون أي محاولة جدية للتحليل - إن كان ثمة تحليل على الإطلاق، ودون

محاولة ربطها بعضها ببعض أو توضيح العلاقة بينها. وتختلف الدراسة الأنثروبولوجية المعاصرة عن ذلك في أنها تهتم بتبين وتحليل التشابك والترابط بين النظم الاجتماعية وتفاعل هذه النظم بعضها مع بعض. فمن العبث الذي لا طائل تحته محاولة عزل أي نظام اجتماعي ودراسة على حدة بعيداً عن بقية البناء الاجتماعي. وأي نظام اجتماعي، سواء كان نظام القرابة أو النظام السياسي أو الاقتصادي أو السحر أو الدين، لن يمكن فهمه إلا بإرجاعه إلى النظم الأخرى وبالنسبة لهذه النظم، وذلك لمعرفة وظيفة هذا النظام، أي الدور الذي يؤديه في المحافظة على تماسك النسق الاجتماعي كله. وأي دراسة أنثروبولوجية لن تعتبر دراسة علمية صحيحة إلا إذا بينت علاقة أي نظام بسائر النظم الأخرى، وبالتالي مكانه من النسق الاجتماعي، ولم تقتصر على مجرد السرد والوصف. لنضرب مثلاً نبيين به الفرق بين الوصف البسيط للظواهر الاجتماعية والدراسة التكاملية الصحيحة.

في الفصل الثامن والعشرين من كتابه «المصريون المحدثون» يتكلم «لين» عن (الموت والشعائر الجنائزية) فيتناول بالوصف الخطوات التي يقوم بها الناس حين يدخل أحدهم في دور الاحتضار، ويتابع كل العادات والأفعال التي تتعلق بتهيئة الجسد للدفن ثم تشييع الجنازة، ويصف لنا عملية الدفن كما يصف القبر، ويتكلم عن معتقدات الناس عن حياة الروح بعد الموت، وغير ذلك من مسائل. وفي مجال وصفه للمقبر والدفن يقول: «إن حفرة القبر تكون على العموم من الاتساع بحيث تكفي لدفن أربعة أجساد أو أكثر. وحين يراد دفن الذكور والاناث جميعاً في نفس الحفرة - وهذه ليست العادة الشائعة المتبعة - يقام حاجز ليفصل أجساد أحد الجنسين عن الآخر»⁽²⁾. أما الباحث الأنثروبولوجي فلن يقف عند حد هذه الملاحظة، بل سيري في هذه العادة ولا شك انعكاساً لطبيعة العائلة في مصر وتنظيمها وتماسكها كوحدة قرابية واقتصادية وسياسية متميزة. إذ إنه سيلاحظ في نفس الوقت أن أفراد العائلة وحدهم هم الذين يدفنون في نفس القبر. كذلك سوف يهتم بدراسة درجة القرابة بين الأفراد الذين يباح دفنهم في القبر الواحد، وسيري حينئذ أنهم جميعاً ينتمون في الأغلب إلى العصبة القريبة كالأخوة مثلاً أو الأب وأبنائه. وسوف يظهر له أن هناك ترتيباً في أحقية الدفن، بمعنى أنه يأتي بعد العصبة القريبة أعضاء العصبة الأقل قرباً والذين يلونهم مباشرة مثل أبناء العمومة، ثم أفراد العصبة الأكثر بعداً مثل أبناء العمومة من الدرجة الثانية وهكذا. وقد يرى في ذلك تدليلاً على اختلاف قوة الروابط العائلية التي تقوم في الأصل على مبدأ العصبة وتدرجها. بل أنه قد يقارن بين هذه الروابط من ناحية وتدرج الالتزامات السياسية مثل واجب الأخذ بالنار أو المساهمة في دفع الدية، والالتزامات الاقتصادية كوجوب الانفاق والمساعدة وقواعد الوراثة والتوريث وما إلى ذلك من الناحية الأخرى. وقد يلاحظ الباحث الأنثروبولوجي أيضاً أنه في كثير من الأحيان حين تموت المرأة المتزوجة فإنها تدفن في مدافن عائلة أبيها وليس في مدافن عائلة زوجها. فالزواج لم يفقدها شخصيتها القديمة ولم يقطع علاقاتها تماماً بعائلتها الأصلية التي ترتبط بها بروابط العصبة، ولم يحرمها من الانتساب إلى الأب بل تظل تحمل اسمه، ويكون لها الحق في أن ترثه كما أنها ترث وتورث بعض أفراد عصبته في حالات معينة. فروابط العصبة، أو روابط القرابة في سلالة الذكور: تظل قائمة

فعالة حتى بعد الزواج، رغم أن المرأة تنتقل بالزواج من بيت أبيها إلى بيت الزوج. ومن هذا لا بد أن يتطرق الباحث إلى دراسة مشكلة التعارض بين مبدأ انتقال الزوجة إلى بيت الزوج *Patrilocality* ورابطة القرابة الأبوية *Patrilineality*، وما يفرضه كل من المبدأين من واجبات والتزامات وحقوق. ولكن الباحث سوف يلاحظ أيضاً أنه في بعض الحالات تدفن المرأة المتزوجة في قبر أهل الزوج، وأن هذا يحدث في الأغلب حين يكون مضي على الزواج مدة طويلة أنجبت المرأة أثناءها ذكوراً بلغوا مرتبة الرجال، ففي مثل هذه الأحوال تدفن المرأة (الأم) حيث سيدفن أبناؤها. وسيرى في ذلك رمزاً واضحاً على أن المرأة تصبح عضواً في عائلة الزوج ليس لمجرد قيام رابطة الزواج وإنما لانجاب الأبناء الذكور الذين سيحملون اسم عائلة الزوج ويحافظون على استمرارها في الوجود. فالمرأة تدعى (نكبر) في بعض أنحاء الصعيد وفي الواحات الخارجية مثلاً ما دامت لم تنجب أبناء ذكوراً. وعلى الرغم من أن الناس يعترفون هناك بمبدأ انتقال الزوجة إلى بيت الزوج وأهله بعد الزواج فإن هذا المبدأ لا يوضع في كثير من الأحيان موضع التنفيذ إلا حين تنجب المرأة ذكراً بالفعل. فالزواج يتم في هذه الحالات في بيت أهل الزوجة ويعيش الزوج هناك حتى تلد الزوجة ولداً هو الذي يسهل لها مهمة الانتقال إلى بيت عائلة الزوج.

ومع أن الاتجاه العام في الدراسات الأنثروبولوجية في القرن الماضي كان ينحو نحو الدراسة الوصفية البحتة، فإن بعض العلماء الأوائل في ذلك القرن كانوا يدركون وجود العلاقة القوية بين كل نظم المجتمع وتشابك الظواهر الاجتماعية وتفاعلها بعضها مع بعض، ومع ذلك لم يحاول واحد منهم تحليل هذه العلاقات وتتبعها بالدرس. فريقرز مثلاً يعترف صراحة «بأن الحياة الدينية والاجتماعية عند «التودا» تؤلف كلها نسيجاً معقداً من الأفعال والممارسات المتداخلة بعضها في بعض بشكل وثيق محكم، إلى حد أنني بمجرد أن أبدأ في فحص أي مظهر واحد من مظاهر حياتهم كنت أحصل على معلومات وافية تتصل بنواح أخرى مختلفة كل الاختلاف»⁽³⁾. ولكن بدلاً من أن يحلل هذه العلاقات، كما يفعل العلماء المحدثون، كان «ريقرز» يضيق بذلك التداخل أو الترابط الذي كان يعوقه عن مهمته الأصلية وهي فصل كل نظام اجتماعي على حدة وأبرزه كوحدة لها كيائها الذاتي المتميز. فقد كان ريفرز وغيره من العلماء في القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن يعتقدون أن المنهج السليم في الأنثروبولوجيا الاجتماعية يتلخص في وصف الوقائع والأحداث والعادات وصفاً دقيقاً، ثم تقديم نظرية خاصة يبتكرها الباحث ابتكاراً ويحاول أن يفسر بها الوقائع المشاهدة والنظم المدروسة دون أن تكون هذه النظرية مرتبة بالضرورة على تلك الوقائع والمشاهدات⁽⁴⁾.

وعلى العموم، فالخاصية الأساسية المشتركة بين كل الدراسات الأنثروبولوجية الآن هي محاولة اظهار هذه الناحية التكاملية في المجتمع وأياً ما تكون هذه المجتمعات المدروسة، وأياً ما تكون العناوين التي تظهر هذه الدراسات تحتها فإنها جميعاً تتحدث عن موضوعات بعينها: البيئة، نظام القرابة والزواج، النظام السياسي والضبط الاجتماعي، النظام الاقتصادي، القيم الروحية والخلقية، المعتقدات بما فيها السحر والدين. وقد يختلف ترتيب هذه الموضوعات كما يتفاوت مدى التركيز على موضوع دون غيره من بحث لآخر ولكنها كلها تتوافر،

ولا بد، بشكل ما في البحث.

وتمتاز الدراسة التكاملية عن المحاولات الأولى في القرن التاسع عشر وكذلك عن كتابات «لين» و«ديبوا» وغيرهما، بأن لها اتجاهاً عاماً محدداً تسير فيه، كما أنها تعالج مشكلات محددة. وهذا معناه ضرورة وجود فرض نظري يوجه البحث. الواقع أن كل دراسة أنثروبولوجية الآن هي عبارة عن مناقشة لنظرية اجتماعية أو ناحية معينة منها إلى جانب تسجيلها للوقائع والمشاهدات الملاحظة في المجتمع. فكتاب ايفانز بريتشارد عن النوير وكتاب بريستياني عن الكبجيس دراستان في النظرية السياسية، وكتاب مالنوسكي عن الأرجونوتس⁽⁵⁾ وكتاب فيث عن الصيادين في الملايو⁽⁶⁾ بحثان في النظرية الاقتصادية، وكتاب رادكليف براون عن الأندمان وكتاب بت ريفرز عن السيرا في الأندلس وكتاب ايفانز بريتشارد عن الأزاندي (نيام نيام)⁽⁷⁾ دراسات في نظرية القيم وهكذا، رغم أنها جميعاً لا تغفل النهج التكاملي. فالوقائع والأحداث ليس لها أي معنى أو أهمية في حد ذاتها، وإنما تكتسب معناها الاجتماعي حين توضع في ضوء نظرية عامة. والرأي السائد الآن هو أن الدراسة الأنثروبولوجية - على حد قول ايفانز بريتشارد - دراسة مشكلات، «ونحن نطلب إلى طلبة الأنثروبولوجيا أن يدرسوا المشكلات لا الشعوب»⁽⁸⁾. وما دام الأمر كذلك، فيجب ألا نتوقع من الباحث الأنثروبولوجي الآن أن يسجل لنا كل الوقائع والأحداث التي يجمعها أثناء دراسته الحقلية، كما لا يجب أن ننتظر من أي دراسة أنثروبولوجية أن تكون سجلًا حافلاً وافياً مفصلاً عن تلك الوقائع والظواهر. فالذي لا شك فيه هو أن الدراسة الأنثروبولوجية الآن لا تعرض لنا إلا جانباً يسيراً جداً من المعلومات التي يجمعها الباحث عن القبيلة أو القرية التي يدرسها، والمحك الأخير الذي يتحكم في اختيار ما يذكره في دراسته من تلك المعلومات هو مدى تماشيها واتفاقها مع الاتجاه العام للدراسة ومدى نفعها في تفهم المشكلة التي أثارها هذه المعلومات ذاتها في ذهن الباحث.

وقد ترتب على ذلك كله أن الأبحاث الأنثروبولوجية تكتب الآن على مستوى معين من التجريد. فالدراسة التحليلية البنائية لن تتيسر إلا حين يرتفع الباحث في تفكيره عن مستوى الحقائق والمشاهدات العينية الجزئية أو الوقائع المحسوسة *Ostensive facts* إذ أبيع لنا أن نتكلم هنا بلغة العلم الطبيعي.

وتتفاوت درجة التجريد من بحث لآخر تفاوتاً شديداً. ويرجع هذا التفاوت إلى مدى قدرة الباحث على التحرر من قيود تلك الوقائع البادية الملموسة، أي عن الأحداث والأفعال الاجتماعية الجزئية وعن الأفراد الذين تصدر عنهم هذه الأفعال، ثم إلى مدى اتساع دائرة العلاقات التي يدرسها وتنوع هذه العلاقات فكلما اتسعت هذه الدائرة وتنوعت ارتفعت مستوى التحليل البنائي، وبالتالي مستوى التجريد. صحيح أن معظم الدراسات التي نشرت حتى الآن لا تستخدم في تحليلاتها إلا عدداً قليلاً من المفاهيم والتصورات المجردة، بل إن هذه التصورات نفسها ليست على درجة عالية من التجريد لأنها في الواقع لا تعدو أن تكون ألفاظاً ومصطلحات تتمثل زمراً اجتماعية أو العلاقات بين هذه الزمر مثل كلمة «مجتمع» أو «قبيلة» أو «بطن» أو «ثقافة». بيد أن

مفاهيمات وتصورات أخرى أكثر تجريداً بدأت تجد طريقها إلى الأبحاث الحديثة التي ظهرت في السنوات الأخيرة، مثل تصور «البناء الاجتماعي»، و«الزمان البنائي» و«المكان البنائي»، وغيرها، كما بدأ العلماء يفسرون العلاقات بين الزمر الاجتماعية المختلفة في ألفاظ وحدود وتصورات أكثر تجريداً. ولعل أشهر هذه التصورات وأكثرها استخداماً هي فكرة الانشقاق والالتحام Fission and fusion التي أدخلها إيفانز بريشارد إلى ميدان الأنثروبولوجيا واستخدمها في تحليله البنائي لنظام القرابة والنظام السياسي والتوزيع الاقليمي ونظام طبقات العمر عند النوير⁽⁹⁾.

ويلاحظ هنا أن إيفانز بريشارد وتلاميذه وأتباعه في أكسفورد - وهم يمثلون حركة قوية جداً في الأنثروبولوجيا الاجتماعية - لم يعودوا يهتمون اهتماماً كبيراً بالعلاقات بين الأفراد أو حتى بين الزمر الاجتماعية الصغيرة القابلة للتغير السريع. فهم يرون أنه لكي تبلغ الدراسة مستوى عالياً من التجريد والتحليل البنائي لا بد من التركيز على دراسة الجماعات التي تتميز بدرجة عالية من التماسك، والتي تثبت قدرتها على البقاء والاستمرار والصمود ضد عوامل التغير لأطول وقت ممكن، بحيث تحتفظ على مر الأجيال بكيانها وهيكلها العام رغم الأفراد الذين يؤلفونها، كما هو الحال في البدنة Lineage مثلاً أو طبقة العمر age-set فالعائلة عند إيفانز بريشارد ليست جماعة بنائية «لأنه ليس ثمت علاقات ثابتة ودائمة في العائلة كجماعة، كما أن العائلة تموت بموت أفرادها. وقد تظهر عائلات جديدة. ولكن العائلات القديمة تكون قد زالت وفنيت إلى الأبد»⁽¹⁰⁾. ولذلك فإن كتابه عن النوير (الذي يعترف فيه بأنه كتبه على مستوى من التجريد أعلى من المستوى المألوف في الدراسات الأنثروبولوجية، والذي يمثل ثورة حقيقية في البحث الأنثروبولوجي من هذه الناحية)، لا يكاد يعرض للعائلة إلا في حالة الاستشهاد وضرب الأمثلة للتوضيح.

تتطلب الدراسة التكاملية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية أن يقصر الباحث اهتمامه على مجتمع واحد معين أو على ثقافة واحدة بالذات، بغية دراستها دراسة شديدة التركيز للتعرف على كل النظم الاجتماعية في ذلك المجتمع أو تلك الثقافة، ثم تحليل أنواع العلاقات القائمة بين هذه النظم. ولن يتحقق هذا المطلب على أكمل وجه إلا باتصال الباحث اتصالاً مباشراً بالمجتمع الذي يدرسه، وهذا معناه الدراسة الحقلية field Work التي تعتبر شرطاً جوهرياً في الأبحاث الأنثروبولوجية الآن. فالأنثروبولوجيا الاجتماعية تعتمد في المحل الأول على الملاحظة المباشرة، وإن كان ذلك لا يمنع الباحث من الاستعانة بالكتابات الأخرى التي تكون قد ظهرت عن ذلك المجتمع. والالتجاء إلى الدراسة الحقلية تطور حديث نسبياً في تاريخ الأنثروبولوجيا. فقد كان الأنثروبولوجيون الأوائل يعتمدون، كما قلنا من قبل، على تقارير وكتابات الرحالة والمبشرين، ولكن هؤلاء كانت تنقصهم ولا شك الخبرة والمران الكافيان لضبط الملاحظة، كما أن معظم ملاحظاتهم كانت تنصب على العادات الغريبة غير المألوفة دون غيرها، أي أنهم لم يكونوا - من وجهة النظر العلمية البحتة - يعرفون كيف يلاحظون أو ماذا يلاحظون. فالشيء الذي يسترعي الانتباه حقاً هو أن العدد

الأكبر من علماء الأنثروبولوجيا في القرن الماضي من أمثال فريزر Frazer وماكلينان MacIenlan والأب شмит F. Schmidt وغيرهم من أئمة التفكير الأنثروبولوجي النظري، لم يخطر ببالهم قط أن يزوروا إحدى تلك القبائل البدائية التي كانوا يكتبون عنها من بعد، وما يقال عن هؤلاء يصدق على دوركهام Durkheim الذي أثرت نظرياته تأثيراً كبيراً جداً في تطور وتبلور تفكير رادكليف براون ومدرسته. أما النفر القليل من هؤلاء الأنثروبولوجيين الأوائل مثل تايلور Taylor وباستيان Bastian الذين قاموا برحلات كثيرة زاروا أثناءها عدداً كبيراً من الشعوب والقبائل البدائية، فلم يقم واحد منهم بدراسة منهجية مركزة Intensive لأي شعب واحد منها على وجه التخصيص. ويرجع أكبر الفضل في التنبيه إلى أهمية الدراسات الحقلية إلى بعثة جامعة كمبودج في أواخر القرن الماضي (1888) لدراسة جزر مضائق توريس Torres Straits Islands الواقعة بين غينيا الجديدة وشمال أستراليا.

تتوقف الدراسة الحقلية الناجحة على أمرين: الأول يتعلق بحجم المجتمع المدروس، والثاني بالمدة التي يمضيها الباحث الأنثروبولوجي في ذلك المجتمع. والاتجاه السائد الآن هو دراسة المجتمعات الصغيرة المحددة تمام التحديد. فكلما صغر حجم المجتمع وتحددت رقعة ومساحته وتميزت معالمه وحدوده، سهل على الباحث تتبع نظمه الاجتماعية ودراسة نسقه الاجتماعي كوحدة متميزة واضحة. ولذا كانت معظم الأبحاث التي بأيدينا الآن تتناول شعباً واحداً أو قبيلة واحدة أو مدينة صغيرة أو قرية أو حتى مصنعاً أو محلاً تجارياً. فايفانز بريشارد مثلاً يدرس النوير على حدة كما يدرس الأزاندي على حدة، ولم يحاول أن يقوم بدراسة حقلية تشمل كل مجموعة الشعوب النيلية التي يندرج تحتها النوير والأزاندي. و«بريستاني» يدرس قبيلة الكبسجيس الذين لا يتعدى عددهم الثمانين ألفاً ولا يدرس مجموعة الشعوب السودانية أو حتى القبائل الناطقة بلغة الناندي (وهي أحد فروع هذه المجموعة) التي ينتمي إليها الكبسجيس. وبت ريفرز يكتفي بدراسة مدينة Alcalà de la Sierra التي لا يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف شخص، ولا يدرس إسبانيا كلها أو حتى الأندلس حيث تقع المدينة. وأخيراً نجد جون امبري يقصر دراسته الحقلية على قرية سوهمي مورا Suye Mura التي يبلغ تعدادها 1663 نسمة، ولم يدرس اليابان كلها أو إحدى الجزر اليابانية الصغيرة.

واختيار الوحدة الاجتماعية التي يركز فيها الباحث دراسته الحقلية يعتبر من أشق المسائل التي يقابلها كل أنثروبولوجي في بداية عمله. فالأساس الأول في التعيين والاختيار هو وجود نسق اجتماعي واضح يستطيع الباحث تحليله ودراسة العلاقات المتداخلة المتشعبة التي يتألف منها. بيد أن كل وحدة اجتماعية أياً كان حجمها، لها نسقتها الخاصة، كما أن ما نعتبره نسقاً متكاملًا في وحدة اجتماعية معينة قد يؤلف جزءاً من نسق أوسع في وحدة اجتماعية أكبر.

ويقابل مسألة تحديد الوحدة الاجتماعية تحديد المدة الزمنية للبحث. والعادة أن فترة الدراسة الحقلية تستغرق

عامين أو أكثر . وعلى أي حال فلا بد من أن يمضي الباحث عاماً كاملاً على الأقل في المجتمع الذي يدرسه حتى يستطيع التعرف على كل مظاهر الحياة وأنواع النشاط الاجتماعي على مدار السنة . والمعلومات التي يحصل عليها الباحث أثناء إقامته في ذلك المجتمع تؤلف - وحدها في الأغلب - مادة كتابته ودراسته التحليلية البنائية . فالمجتمعات البدائية التي لا يزال علماء الأنثروبولوجيا يولونها الجانب الأكبر من اهتمامهم ليس لها تاريخ مكتوب ، ولهذا يكتفي الباحث باعطاء صورة تكاملية للمجتمع في تلك الفترة المحدودة التي استغرقها دراسته الحقلية . ولهذا أيضاً أسقط معظم العلماء التاريخ من اعتبارهم كوسيلة تساعد على فهم الظواهر الاجتماعية التي تقع تحت ملاحظتهم المباشرة ، وإن كان ذلك لا يمنع من الاستعانة بالتاريخ كلما تيسر ذلك ، وخاصة دراسة المجتمعات الأكثر تقدماً . ولا يعني استخدام التاريخ في ميدان الأنثروبولوجيا البحث عن الأصول الأولى للظواهر أو النظم الاجتماعية كما كان يعتقد علماء القرن التاسع عشر . فلم يعد الأنثروبولوجيون المعاصرون يهتمون بنشأة النظم الاجتماعية وتطورها . وكل ما يهتمون به هو - كما قلنا من قبل - وظيفة أي نظام في البناء الاجتماعي ، أي الدور الذي يؤديه ذلك النظام نحو تماسك المجتمع .

وهكذا يتضح لنا أن ميدان البحث الأنثروبولوجي أصبح على العموم أضيق بكثير الآن عما كان عليه في القرن التاسع عشر . فبينما كان علماء القرن الماضي يحاولون البحث مثلاً عن المعنى الاجتماعي للدين في إطلاقه وبدون أي تحديد أو تقييد ، يدرس الباحث الأنثروبولوجي الآن المعنى الاجتماعي للنظام الديني في قبيلة من القبائل أو وظيفة عبادة الأسلاف عند أحد الشعوب الأفريقية التي يتميز نسقها الاجتماعي في نفس الوقت بوجود نظام البدنة الكبيرة المنقسمة الى بدئات أصغر⁽¹¹⁾ .

كذلك بدلاً من أن يحاول دراسة تطور العائلة في جميع أشكالها ويفترض لذلك شكلاً معيناً يعتقد أنه هو الأصل الأول الذي تطورت عنه سائر الأشكال المعروفة ، ويلجأ في سبيل ذلك إلى التخمين أو إلى ما يسمى بالتاريخ الظني الذي لا يرتكز في الأغلب على حقائق ثابتة ، فإنه يكتفي الآن ببحث مشاكل محددة معينة صغيرة مثل دراسة أنماط السلوك وتأثرها بفوارق السن والجنس وعلاقة ذلك كله بالمركز الاجتماعي والوظيفة الدينية وتركيز السلطة في أحد المجتمعات الصغيرة التي يقوم فيها البناء الاجتماعي كله على أساس العصبية وروابط القرابة الأبوية ، وهكذا . والمعتقد أن هذا التحديد خليق بأن يوصل الى نتائج مثمرة وأنه أقرب إلى روح العلم الصحيح من تعميمات القرن التاسع عشر التي كانت تطلق بقصد تفسير ظواهر عامة . والرأي السائد الآن عند الأنثروبولوجيين هو أننا نستطيع أن نصل إلى معرفة أوفى وأصدق عن طبيعة المجتمع البشري في عموميه بدراسة مجتمعات معينة دراسة مركزة تعتمد على الملاحظة المباشرة ، بقصد التعرف على طبيعة بعض المشكلات المحددة ومحاولة حلها .

وكانت النتيجة الطبيعية من كل هذا الاهتمام بالدراسة الحقلية المقيدة بقيود المكان والزمان أن أصبح عندنا الآن عدد كبير جداً من الأبحاث المتعلقة بقبائل أو مجتمعات صغيرة متفرقة في جميع أنحاء العالم . وقد نشر

بعض هذه الأبحاث بالفعل، ولكن الغالبية العظمى لا تزال في شكل مخطوطات تمتلكها أصحابها أو تحتفظ بها معاهد تدريس الأنثروبولوجيا. وفي مكتبة معهد الأنثروبولوجيا الاجتماعية Institute of Social Anthropology بأسكفورد، مثلاً، ما لا يقل عن ثلاثين بحثاً من هذا القبيل يتعلق معظمها بقبائل وشعوب أفريقية. والذي ينقصنا الآن هو الدراسة المقارنة التي تستخدم هذه المعلومات الهائلة التي بأيدينا للوصول إلى تعميمات كلية. فالواقع أن الدراسات المقارنة لا تزال مهملة في ميدان الأنثروبولوجيا إجمالاً كبيراً على الرغم من أن «رادكليف براون» لا يرى مانعاً من تسمية الأنثروبولوجيا الاجتماعية باسم علم الاجتماع المقارن Comparatives Sociology، ولكن هذه مسألة أخرى خارجة عن موضوع بحثنا الآن⁽¹²⁾.

مراجع مختارة

- Evans-Pritchard (E.E.): The Nuer, A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People: (OXFORD, 1948).
 Social Anthropology: Inaugural Lecture: (OXFORD, 1948).
 Social Anthropology (Cohen & West, 1951).
 Fortes (M) ed: Social Structure: Studies presented to A.R. Radcliffe-Brown: (OXFORD, 1949).
 «Analysis and Description in Social Anthropology», Reprint from the Advancement of Science, No. 38. Sept. 1953.
 Kaufmann (F): Methodology of the Social Sciences (O.U.P. 1944).
 Richards (A.I.): «The Development of Field work Methods in Social Anthropology» in Bartlett and Othersp (ed): The Study of Society, (Kegan Paul, 1946).

الحواشي:

- Evans-Pritchard: Inaugural Lecture pp. 3-4. (1)
 Lane: op. cit, p. 528. (2)
 Rivers (W. H. R.): The Todas; p. 10. (3)
 Fortes (M) analysis and description in social. (4)
 Mallinowski (B): Argonauts of the Western Pacific (London, 1922, Third Imp. 50 . (5)
 Firth (R) Malay Fishermen, (London, 1946). (6)
 Evans-Pritchard (E.E): Witchcraft, Oracles & Magic among the Azande, (oxford. 37) (7)
 Evans-Pritchard: Social Anthropology; p. 87. (8)
 Evans-Pritchard: The Nuer, pp. 262-66; Firth: Elements of Social Organization, pp. 26-27; Nadel (S. F.): The Foundations of Social Anthropology, pp. 80-82 (9)
 Whitehead (A.N) Adventures of Ideas; p. 196.
 Evans-Pritchard:- Ibid, p. 262. (10)
 Evans – Pritchard: Social Anthrology. p 91. (11)
 يقصد رادكليف براون هنا علم الاجتماع كما يفهمه دوركهائم وأتباعه وتلاميذه في فرنسا. والفارق الوحيد بين علم الاجتماع بهذا المفهوم (12)

والأنثروبولوجيا الاجتماعية ينحصر في طريقة دراسة المجتمع. فبينما يهتم علماء الاجتماع الفرنسيون بالدراسة النظرية التي تصطبغ بصبغة فلسفية، يفضل علماء الأنثروبولوجيا مواجهة الوقائع العينية المحسوسة. ومن المعلوم أن دوركايم، وكذلك معظم العلماء الفرنسيين، لم يقوموا بأي دراسة عقلية، غير أن بعض شباب العلماء في فرنسا اتجهوا أخيراً إلى الدراسات العقلية. وهؤلاء جميعاً من تلاميذ موس Mauss وليفي ستروس Lévi-Strauss، ومن أهمهم لوي ديمونت Louis Dumont، الذي درس أحد المجتمعات الصغيرة في جنوب الهند.